الفصل الثانى

كوندرسيه

- تمهيد .
- حياته وأعماله .
- فكرة التقدم .
- مراحل تقدم الإنسانية .

- تمهيد :

تحركت الثورة الفرنسية من قلب " عصر التنوير " ولم تقتصر على إلغاء النزعة الإقطاعية المطلقة، وإحلال النظام الاقتصادى والسياسى محلها، بل أكملت ما بدأته حركة الإصلاح الدينى؛ فحررت الفرد وجعلت منه سيداً ومالكاً لحياته، يعتمد فيها على نفسه فحسب. ولم يعد مركز الإنسان فى العالم وطريقة عمله متوقفاً على سلطة خارجية، بل على نشاطه العقلى الحر. ومنذ ذلك الحين أصبح تقدمه فى المعرفة هو الذى يوجهه فى صراعه مع الطبيعة ومع التنظيم الاجتماعى (23).

أخذ الإنسان على عاتقه أن تنظيم الواقع وفقاً لمتطلبات تفكيره العقلى الحر بدلاً من الاكتفاء بتشكيل أفكاره وفقاً للنظام القائم والقيم السائدة. وعقل الإنسان يتيح له أن يتعرف على إمكاناته الخاصة، وعلى إمكانات عالمه، ومن ثم فهو ليس واقعاً تحت رحمة الوقائع المحيطة به؛ وإنما هو قادر على إخضاعها لمعيار أرفع هو معيار " العقل ". لذلك، فإن التحول الحاسم الذى طرأ على التاريخ مع الثورة الفرنسية كان انتقال الإنسان إلى الاعتماد على عقله، وتجاسره على إخضاع الواقع المعطى لمعايير العقل. ومن هنا نظرت فلسفة التنوير إلى العقل بوصفه قوة تاريخية موضوعية تستطيع - بمجرد أن تتحرر من قيود الطغيان - أن تجعل العالم مكاناً يتحقق فيه التقدم والسعادة (24).

وقد أسهم فلاسفة " التنوير " بأفكار جديدة فى الدراسات التاريخية، إذ جعلتهم نزعتهم المتحررة رواد النقد التاريخى فى العالم الحديث، ومن بين هؤلاء نجد " كوندرسيه " الذى لجأ إلى " التاريخ " لبيان تقدم العقل الإنسانى وآمن بالمنهج العلمى القائم على أساس استخدام الملاحظة الدقيقة والوسائل

الرياضية سواء فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية، وحارب بشدة التعميمات الخاطئة والأفكار الخيالية المجردة؛ ونادى أيضاً بإنشاء علم جديد سماه " الرياضة الاجتماعية " وهو علم خاص بدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق استخدام العلوم الرياضية، خاصَّة الإحصاء وحساب الاحتمالات. وهكذا أنار السبيل أمام العلماء من بعده حتى استطاعوا تحديد المناهج الإحصائية الدقيقة لعلم الاجتماع (25).

ترتبط نظرية " كوندرسيه " فى التقدم بنظرياته فى فلسفة " التاريخ"، إذ وضع قانوناً عاماً لسير التاريخ الإنسانى؛ يقوم هذا القانون على أساس النظر إلى المجتمعات الإنسانية وتاريخ البشر نظرة كلية عامة وتعرف تلك النظرة بظاهرة " تشخيص الإنسانية " أى تشبيه الإنسانية بشخص واحد. والإنسانية فى تقدمها تسير فى عشر مراحل، تعبر المرحلة الأخيرة أى العاشرة عن مستقبل الإنسانية، أى عن العصر الذى يلى عصر " كوندرسيه "، ولذلك تعد آراؤه - فى تلك المرحلة - تنبؤات تمثل أقصى مراحل التقدم الإنسانى.

* * *

حياته وأعماله

ولد " كوندرسيه " فى 17 سبتمبر عام 1743 فى بلدة " ريبمونت " Ribemont بمقاطعة بيكارديا بشمالى شرقى فرنسا، وينتمى إلى أسرة عريقة هى أسرة "كاريتا" Caritat وكان والده ضابطاً فى سلاح الفرسان ووالدته من أصل بورجوازى. تعلم فى كلية اليسوعيين فى رانمس Reims ثم فى كلية "نافار" Niavare الشهيرة عام 1758 ، وظهر نبوغه - فى هذه الكلية - فى مجال الرياضيات، مما جعل أكاديمية العلوم تعينه عضواً عام 1769 وهو فى السادسة والعشرين من عمره، وفى أثناء هذه الفترة قدم بحثاً بعنوان " الحساب التكاملى " وعن طريق هذا البحث تعرف " كوندرسيه " على كل من "تورجو" Turgot (1727 - 1781) و"دالمبرت" dalembert (1717 - 1783). وفى عام 1767 كتب مذكرة عن " مسألة الأجسام الثلاثة "، وفى عام 1768 صدر له " مقال فى التحليل "، وقد ساعدته تلك الأبحاث على الاشتغال فى أكاديمية العلوم. وفى عام 1770 ذهب بصحبة " دالمبرت " لزيارة " فولتير" فى بلدة " فرناى " وبعد العودة من تلك الرحلة، كف " كوندرسيه " عن البحث فى العلوم الرياضية واتجه إلى العلوم الاجتماعية [26].

وفى عام 1777 انتخبته أكاديمية العلوم أميناً دائماً لها، كذلك انتخب عضواً فى " الأكاديمية الفرنسية" عام 1787؛ كما صار عضواً فى أكاديميات أوروبية أخرى. وفى عام 1786 تزوج من " صوفى دى جروشي " Sophie de Grouchy (1764 - 1822) وكانت من أجمل فتيات فرنسا فى ذلك الوقت، أنشأت لها " صالوناً أدبياً " فى قصر " النقود " Hotel des Monnoies حيث كان يسكن

زوجها " كوندرسيه " بوصفه مفتشاً عاماً لسك النقود. وكان هذا المنتدى الأدبى من أشهر المنتديات الأدبية فى فرنسا فى أواخر " القرن الثامن عشر " [27].

أبدى " كوندرسيه " نشاطاً ملحوظاً فى إصلاح نظام التعليم فى فرنسا، وكان المحرر الرئيسى للنداء الموجه من رجال الثورة الفرنسية إلى الحكومات الأوروبية فى عام 1791 وفى عام 1792 قدم إلى " الجمعية التشريعية " مشروعاً لنظام التعليم، كان هو الأساس فى النظام الذى أقره فيما بعد. وفى عام 1793 أصدر قرار بإدانته وإهدار دمه، فهرب واختبأ لدى بعض أصدقائه وأتم كتابه المشهور: " ملخص للصورة التاريخية لتقدم العقل الإنسانى "، وفى عام 1794 قُبض عليه فى مدينة " بورلارين" Bourg - la - Reine حيث سُجن وتوفى فى 29 مارس 1794.

* * *

فكرة التقدم [28]

فى أواخر القرن السابع عشر وطوال القرن الثامن عشر أخذ الفكر الحديث يؤكد ثقته بالأسس العقلية والمنهجية التى عمل على إرسائها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتزايد وعيه باختلافه عن الفكر القديم وبقوته وسلطته فى مواجهة القيم التى ظلت حية عبر القرون. وارتفعت الأنساق الفلسفية والرياضية التى تطمح للكمال، وراح كل فيلسوف يبنى مذهباً يزيح المذهب السابق عليه ليحتل مكانه، وشعر أقطاب العلم الجديد بتفوق معرفتهم على معرفة القرون السابقة. وأصبحنا إزاء فكر جديد يؤكد اختلاف العقل عن الوحى والعلم عن الإيمان، وظهر الاعتزاز بالتقدم والتطور. كل هذه الاتجاهات المتعددة اندرجت تحت عنوان " التنوير" وهى الصياغة الاجتماعية للنور الفطرى الذى تحدث عنه "ديكارت" و"اسبينوزا" من قبل[29].

وقد احتشد عصر " التنوير" بالعديد من فلاسفة " التقدم " أمثال " تورجو " الذى حاول تتبع مصير الجنس البشرى على ضوء فكرة " التقدم، وقد عالج هذه الفكرة فى كتابه " مقال فى التاريخ العالمى" الذى ظهر عام 1750، وتتلخص هذه الفكرة فى أن الجنس البشرى بوصفه مجتمعاً واحداً وجسماً واحداً يسير دائماً إلى الأمام ونحو الكمال والرقى المضطرد، ولكنه فى هذا السير ينحو إلى التأنى لا إلى العجلة والارتجال؛ ووسيلته فى ذلك العمل والإنتاج فى هدوء أحياناً وثورة ووثبة أحياناً أخرى. وبناء على ذلك، يرى " تورجو " أن هناك قانوناً عاماً لتطور الإنسانية يمثل سيرها الدائم إلى الأمام وارتقاءها وتطورها من الجدة والشدة إلى التحضر والتقدم، ومن هذا يقول:

" إن التجارب تعلم الناس كيف يرقوا دائماً فى نفوسهم المعنى الإنسانى، ومن العهود الأخيرة عمت بينهم محبة الخير والمشاعر النبيلة وهذا ما أضعف الميل الشديد إلى الانتقام بين الأفراد والأمم " [30].

أما " كوندرسيه " فقد وضع تصميماً لتاريخ الحضارة على ضوء فكرة " التقدم " وألف صورة تاريخية لتقدم العقل الإنسانى، وركز على تأكيد الوحدة التى لا تنفصم بين التقدم الفكرى والحرية والفضيلة، واحترام الحقوق الطبيعية؛ وتأثير العلم فى القضاء على التزمت، وذكر أن كل أخطاء السياسة والأخلاق قد نبعث من المعتقدات الزائفة الوثيقة الصلة بأخطاء الفيزياء والجهل بقوانين الطبيعة، ورأى فى المذهب الجديد للتقدم أداة للتنوير وضربة قاضية لصرح التزمت المتداعى. ومضى يثبت – اعتماداً على وقائع التاريخ – أن الطبيعة لا تتقيد فى عملية ارتقاء الملكات الإنسانية بأية شروط، والحد الوحيد أمام بلوغ الكمال هو مدى بقاء الأرض [31].

هذا بالإضافة إلى ظهور" الموسوعة الفرنسية " تحت إشراف " ديدور" و" دالمبرت"، فجمعت بين دفتيها مفكرين وكتاباً يمجدون العقل وينظرون إلى " التقدم" فى المعرفة كمسلمة بديهية مثل " فونتنل" Fontenelle (1657-1757) الذى نادى بتقدم المعرفة الجديدة ومحاربة المعارف القديمة ورفع رايات التقدم والإيمان بالعقل الشامل. والجدير بالذكر، أن هذه النظرة المتفائلة التى سادت عصر " التنوير" تمركزت فى المجتمع الفرنسى وتغنى بها فلاسفة التنوير الفرنسيون إبان حكم الملك لويس الرابع عشر حيث الحياة الرغيدة والاستغراق فى الترف. ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات المحتجة على فكرة " التقدم"، فرجال الدين لا يخفون سخطهم على العقل، ولا يعترف " بسكال" لسلطته، وقد حكم عليه " لوثر" حكمه القاسى حينما قال: " إن العقل الذى أصابه مس من الشيطان يؤذى الأمور الإلهية أعظم

أذى، وكلما ازداد حظه من العلم والبراعة ازداد ضرره ". وحاول " روسو" أن يثبت حدوث نكوص فى التاريخ عندما أعلن أنه " تتعرض أرواحنا للفساد فى الوقت نفسه الذى تتقدم فيه علومنا وفنوننا تجاه الكمال "[32]. ولم يتحمس الفكر الإنجليزى لفكرة " التقدم " ربما لاستقرار الأوضاع السياسية والاجتماعية والرغبة فى الحفاظ على هذا الاستقرار، مما جعل المفكرين حذرين فى الأخذ بالتقدم. فنجد "هيوم" Hume (1711 - 1776) يؤكد أن العالم يجب أن يمر بمراحل مختلفة من الطفولة والنضج ثم الكهولة والشيخوخة، ويشارك الإنسان فى كل هذه الأطوار، وتزدهر العلوم والفنون من حين لآخر ثم تتعرض مرة أخرى للذبول [33].

وعلى الرغم من كل المحاذير والتحفظات والانتقادات التى أبداها البعض لفكرة " التقدم "، فإن الاكتشافات والاختراعات العلمية الكبرى التى تمت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر جعلت الثقة فى قدرات العقل البشرى ثقة مطلقة لا رجوع فيها. فالتقدم العلمى الهائل جعل الفلاسفة ينظرون إلى فكرة " التقدم " كضرورة حتمية فى " التاريخ " وتخيلوا أن بوسعهم أن يحققوا تقدماً لا نهائياً فى الحضارة، وبالتالى بدأوا بالتخلى عن فكرة الفساد والتدهور. وتمخض عن هذا التقدم تاريخ تخمينى افتراضى – ساد القرن الثامن عشر – يبحث من خلال العقل عن القوانين الطبيعية للتطور وتقدم الجنس البشرى ككل. واعتقد مفكرو ذلك العصر أن التقدم ليس شيئاً عرضياً ولكنه ضرورة تاريخية، تقدم لا يعتمد على سجلات الأحداث الفعلية فى التاريخ ولكن على استعمال العقل [34].

* * *

مراحل تقدم الإنسانية

يقسم " كوندرسيه " مراحل تقدم الإنسانية فى عشر مراحل متتالية هى على النحو الآتى:

المرحلة الأولى: ظهور الجماعات الإنسانية الأولى

يبنى " كوندرسيه " تصوراته عن هذه المرحلة على ملاحظة طبيعة الإنسان الجسمية والعقلية والأخلاقية، فهذه الطبائع الثلاث تجبره على العيش فى جماعة. والجماعة – فى بادئ الأمر – هى جماعة صغيرة الحجم كـ" الأسرة، التى تعد المجتمع الطبيعى بالنسبة للإنسان. وقد استقرت الأسرة الواحدة على قطعة من الأرض تستغلها كمورد للعيش ثم أخذت تتكاثر ويزداد عددها ويكبر حجمها إلى أن صارت "عشيرة ". ومن أهم مظاهر الحياة – فى هذه المرحلة – ظهور الفنون العملية أى فن صنع الأسلحة، وفن الطبخ، وفن إعداد الأدوات اللازمة للطبخ، وفن حفظ المأكولات. وهذه الفنون تميز الإنسان عن الحيوان، وأساس الإنتاج هو الصيد البرى والبحرى مع زراعة بعض المزروعات تقوم بها النساء حول الأكواخ التى تسكنها الأسرة، وفى عشائر أخرى كانت الأرض تقدم من تلقاء نفسها بعض الخضروات؛ وكان البدائيون يشغلون جزءاً من أوقاتهم فى البحث عن هذه الخضروات وجنيها (35).

وظهرت فى هذه المرحلة لغة للتخاطب والتفاهم بين أفراد الأسرة، وأدى هذا إلى وجود مشاركة وجدانية بين أعضاء المجتمع الواحد ثم تحولت

هذه العاطفة نحو المجتمع نفسه، وهذه العاطفة الأخيرة أدت إلى وجود الرغبة للأخذ بالثأر من أعداء المجتمع. كما تطور مفهوم السلطة السياسية نتيجة حاجة المجتمع إلى قائد أو زعيم يدبر وسائل معيشتها وينظم الدفاع عن أمنها، ولابد أن تتوافر – فى هذا القائد – صفات شخصية أهمها السن وقوة الشخصية. وظهرت – فى هذه المرحلة أيضاً – أنواع من الرقص والموسيقى لتسلية الشباب وكانت تُؤدى فى الأعياد الشعبية (36).

ومن عيوب هذه المرحلة القسوة فى معاملة الأعداء واستعباد النساء، وسيطرة الخرافة والجهل بأصول الأشياء وتفسيرها تفسيراً خاطئاً، كذلك الاعتقاد فى السحر والسحرة. كما سيطرت على العقول معلومات مشوهة عن الفلك والنباتات الطبيعية التى كانت تستخدم لعلاج الأمراض. وانقسم المجتمع عند " كوندرسيه " فى هذه المرحلة إلى طبقتين، طبقة لها النفوذ وهى الطبقة الحاكمة، وأخرى يُفرض على معظمها الخضوع للطبقة الأولى التى تمثل السلطة الدينية.

المرحلة الثانية: الرعى

وهى مرحلة استئناس الحيوانات والاعتماد على منتجاتها. فقد تولدت فى العقول فكرة المحافظة على الحيوانات التى يصيدونها خاصَّة وأن هذه المحافظة لا تكلفهم كثيراً، نظراً لتوافر العشب فى الأرض المحيطة. كذلك ساعد استئناس الحيوان على إيجاد نوع من الاستقرار فى حياة الناس وأصبح لهم وقت فراغ استغله الإنسان فى التفكير والتأمل مما أدى إلى تقدم الفنون العملية على نحو ملحوظ، وعرّف النباتات الملائمة للحيوانات المستأنسة فعمل على زيادة إنتاجها وتحسين أنواعها. كما عرّف الإنسان كيف يستخدم الصوف فى صنع الملابس، وعرّف صناعة استخراج الألبان التى حلت محل أكل اللحوم، ولبس الملابس الجلدية فى هذه المرحلة(37).

وترتب على حياة الرعى ظهور بعض العادات الإنسانية منها: عادة الكرم والضيافة ومساعدة المحتاج، وعادة احترام العرف والتقاليد. وظهرت – فى هذه المرحلة – التجارة والمبادلة واستعمال النقود، وظهر التفاوت فى الثروات بصورة واضحة، إذ إن قطعان الماشية عند العائلات لم تتكاثر بنسب متساوية، وقد زادت عند بعض العائلات بدرجة كبيرة؛ مما أدى إلى التفكير فى البحث عن أشخاص للعناية بتلك القطعان فوجدوا ضالتهم فى الأسرى فاحتفظوا بهم كأرقاء بدلاً من قتلهم. أما من الناحية السياسية، فقد زاد عدد السكان فى هذه المرحلة وتجمعت العشائر فى وحدات اجتماعية أكبر وهى " القبائل "، وكل مجموعة متشابهة من القبائل انتظمت فى أمة وكان لكل أمة رئيس للحرب، وكان السن والخبرة والبطولة والثروة من العوامل الهامة فى اختيار الزعيم أو الرئيس سواء على مستوى العشيرة أو القبيلة أو الأمة. وكان رؤساء القبائل والعشائر يحلون المنازعات بين الأفراد أو الجماعات وفق العرف والعادات التى أصبح الجميع يحترمونها، وقد ساعد هذا التنظيم الاجتماعى على تقدم المجتمع (38).

المرحلة الثالثة: الزراعة حتى اختراع الكتابة

تتميز هذه المرحلة بالحروب والغزوات وتكوين الإمبراطوريات وسقوطها، وكان من نتائج هذه الحوادث أن تكونت أمم وتجمعت عائلات وتفرقت أخرى، وتجمعت شعوب مختلفة فى أمة واحدة. ولكن هذه الحوادث ليست واضحة المعالم لقدمها، ولكن الآثار المترتبة عليها يمكن ملاحظتها فى حياة الناس فى تلك الفترة، وأحياناً فى حياتنا نحن أنفسنا. وانتشرت فى هذه المرحلة الفنون العملية وتعددت المهن وأصبح هناك تخصص فى شئون الزراعة وآخر فى صناعة الآلات وثالث فى حراسة حيوانات الرعى وتخصص آخر فى صناعة القماش.

وبجانب هذه المهن انتشرت ونمت التجارة وأصبحت تشمل بضائع كثيرة، وأصبحت هناك طبقة من الناس متخصصة فى شراء البضائع وحفظها ونقلها ثم بيعها من جديد بثمن أعلى، وبالتالى فقد عرفت هذه المرحلة ميلاد طبقتين جديدتين هما: طبقة التجار وطبقة الصنَّاع، وذلك بالإضافة إلى الطبقات الثلاث التى عرفتها مرحلة الرعى وهى: طبقة الملاك، وطبقة الخدم والعمال، وطبقة العبيد. وإذا كان الإنسان قد تمكن – فى المرحلتين السابقتين – من استخدام الخشب والحجر وعظام الحيوانات فى صناعة الآلات، فإنه قد توصل – فى هذه المرحلة – إلى فنون أكثر صعوبة مثل: فن صناعة الفخار وفن نسج القماش وفن إعداد الجلود وفن الصباغة (39).

أما فى مجال العلوم، فقد تقدمت علوم مثل: الفلك، والحساب، والهندسة، والطب، والكيمياء. ويرى "كوندرسيه " أن تقدم العلوم - فى هذه المرحلة - لم يكن إلا وسيلة لتقوية سلطان الحكم وليس لتقدم العلم فى ذاته، ويرى أيضاً أن هذا التقدم لا يمكن أن يتم إلا إذا سبقته معرفة الكتابة لأنها الطريقة الوحيدة لنشر المعارف وتسجيلها.

المرحلة الرابعة: تقدم العقل الإنسانى فى حضارة اليونان حتى عصر الإسكندر الأكبر (40)

أهم ما تتميز به هذه المرحلة الحرية واستقلال الإرادة الإنسانية، إذ لم يقبل اليونان ظلم الملوك واستبدادهم وقهرهم فثاروا عليهم وأسسوا الجمهوريات التى قامت على أساس مبدأ " الحرية". كذلك استقلال العلوم عن الكهنة، فلم تعد العلوم حكراً على الكهنة - كما كانت من قبل - بل أصبحت من حق الجميع، واقتصرت وظيفة الكهنة على أداء الطقوس

الدينية. أدت هذه الظروف الجديدة إلى استقلال العقل الإنسانى وإلى سرعة التقدم. ولكن رغم استقلال العلوم عن الكهنة، فإن حكماء اليونان الذين اتخذوا اسم الفلاسفة حاولوا أن يصلوا إلى طبيعة الإنسان وطبيعة الآلهة وأصل العالم، وحاولوا رد الطبيعة كلها إلى مبدأ واحد أى إخضاع ظواهر الكون المتعددة لقانون واحد، وحاولوا - أيضاً - إرجاع كل الواجبات الأخلاقية إلى قاعدة واحدة تفسر السلوك كله. والخطأ الذى وقع فيه العقل الإنسانى - فى رأى كوندرسيه - هو التفكير النظرى البحت والتأمل العقلى دون الاعتماد على ملاحظة الظواهر والبحث العلمى [41].

ومن أهم الأفكار التى كان لها أعظم الأثر فى تقدم العقل الإنسانى، فكرة " ديمقريطس" Democritus (460 - 370 B.C) عن " الذرات " أو " الأجسام الكيفية ". والفكرة الثانية هى رأى " فيثاغورس " Pythagoras (572-490 B.C) بأن " الأعداد " مبادئ الأشياء جميعاً وأصول طبائعها، وأن العالم بما فيه من توافق وانسجام تحدده نسب رياضية مضبوطة [42]. بالإضافة إلى الأفكار الفلسفية الهامة عند "سقراط " Socrates (470-399 B.C) خاصّة نظرية المعرفة، و" أفلاطون " plato (427-347 B.C) ونظريته عن المثل؛ كذلك ظهور المدارس الفلسفية وانتشارها، الأمر الذى أدى إلى انتشار العلوم وتقدم العقل.

المرحلة الخامسة: تقدم العلوم منذ فترة تقسيمها حتى انهيارها

يحدد "كوندرسيه " عصر تقسيم العلوم بالفترة التى سبقت مباشرة انهيار الجمهوريات اليونانية أمام الرومان[43]، وأصبحت جزءاً من أجزاء الإمبراطوريات الرومانية تعيش بإرادة وعواطف زعماء روما. وأخذ الرومان

من اليونانيين علومهم وفنونهم وفلسفتهم، بل كانت العلوم والفنون والفلسفة غريبة تماماً عن التربية الرومانية، رغم أن " شيشرون" و"لوكرتيوس" Lucretius (B.C 55-99)[44] و" سينكا " Seneca (3 - 65 م)[45] قد كتبوا فى الفلسفة باللغة الرومانية، فإن أفكارهم لم تخرج عن الفلسفة اليونانية. ويحلل " كوندرسيه " هذا الموقف بأن الرومانيين كانوا مشغولين بالحروب والفتوحات، ثم ظهرت بينهم خلافات أدت إلى وجود جو عسكرى طابعه الاستبداد؛ وهذا الجو غير ملائم للتأملات الفلسفية العميقة ولذلك لم تتقدم هذه العلوم على أيديهم، لكنهم اهتموا بدراسة القانون لأنه كان من الطرق المؤدية إلى الجاه والسلطان.

أما عن الدين، فقد كانت الأديان متشابهة من حيث الطقوس والتماثيل وبعض الأسرار، ولم يكن للكهنة أى اتحاد دينى عام يجمعهم، وكان الرومان المتعلمون يشكون فى تلك العقائد والطقوس خاصّة التضحيات الدموية والأصنام. ولاحظ هؤلاء المتعلمون أن هذه الأديان كلها ترجع إلى عقيدة واحدة وأن الاختلافات ما هى إلا اختلافات شكلية. وفى هذه المرحلة أيضاً ظهر السيد " المسيح " فى فلسطين وجاء بمعجزات فاقت ما جاء بها الأنبياء السابقون [46].

المرحلة السادسة : فترة انهيار العلوم حتى بداية تقدمها ثانية فى زمن الحروب الصليبية

تمثل هذه المرحلة النصف الأول من العصر الوسيط، وفيها عم فساد رجال الدين المسيحى، وطغت الكنيسة على مجريات الحياة. ويرى "كوندرسيه " أن هذه المرحلة أدنى مراحل التطور الإنسانى، فيها انطفأت

مشاعل المعرفة وانتشر الجهل المطبق، وسادت الأطماع والشهوات وزادت القسوة والتوحش وقامت الهمجية باسم " الدين " ويقسم " كوندرسيه " بحثه عن ذلك العصر إلى قسمين: قسم خاص بالغرب والآخر بالشرق. ففى الغرب سيطر البرابرة الغزاة على أوروبا وأشاعوا فيها الفوضى رغم اعتناقهم المسيحية، واحتفظت روما بشيء من الاستقلال فى ذلك العصر لأنها كانت فى حماية رئيس الديانة، وحاولت روما فرض سلطان القساوسة على العالم أجمع فكونت فى كل أمة جيشاً منهم يقوم بنشر الخرافات الخادعة، والتعصب الأعمى والفتن الأهلية؛ بل لقد أباحوا " باسم الله " الخيانة والقتل والرشوة والكذب والخداع [47].

أما الشرق، فلم يصل إلى درجة الانحطاط والهمجية التى وصل إليها الغرب فى العصور الوسطى، لكن لم تظهر فيه بذور البناء والتقدم من جديد مثل ما حدث فى أوروبا. ويتحدث " كوندرسيه " عن العرب ويصفهم بأنهم أمة متحدة فى الأصل واللغة والعادات، ظهر فيها رجل وحَّد صفوفهم وعودهم على قبول فكرة " الرئيس "، وأقام - على بقايا عقائدهم المتفرقة - ديناً جديدًا أكثر نقاءً وطهارة، كان هذا الرجل مشرعاً ونبياً وقاضياً وإماماً وقائداً للجيش فى وقت واحد. ويستطرد قائلاً: " استخدم النبى محمد كل الوسائل التى تخضع الرجال، وعرف كيف يستخدمها بخبرة ولكن فى عظمة وهيبة، وهكذا كسب المعارك ونشر الدين الجديد وقد لازمته الصلاة فى كل لحظاته"[48].

المرحلة السابعة: منذ بداية تقديم العلوم فى الغرب حتى اختراع الطباعة

تمثل هذه المرحلة النصف الثانى من العصر الوسيط [49]، وتُعرف عادة - عند المؤرخين - بمرحلة الإقطاع. فقامت مقاطعات فى وسط فرنسا ودول

أخرى بالدعوة لمذهب أكثر بساطة يتلخص فى الدعوة إلى مسيحية خالصة يخضع فيها الإنسان لله وحده وينفذ أحكام الكتاب المقدس، وأثارت تلك الدعوة حقد رجال الكنيسة، فقاموا بتشكيل محاكم من الرهبان تسوق الموت لكل شخص يستمع إلى عقله، فشنقوا الكثيرين وسميت هذه المحاكم باسم "محاكم التفتيش" (50)؛ لكنها لم تستطع القضاء على تلك الروح التى انتشرت سراً بين الناس. وعندما اخترعت " الطباعة " أصبح هذا التقدم من القوة والانتشار بحيث خلص جزءاً كبيراً من أوروبا من عبودية رجال الكنيسة الكاثوليكية وقويت حركة الصراع بين الاستبداد الدينى وبين العقل ومبادئه.

المرحلة الثامنة: منذ اختراع الطباعة حتى بداية العصر الحديث

كان لاختراع الطباعة آثار قوية فى تقدم العقل البشرى، إذ تحرر التعليم من استبداد الدين والسيطرة السياسية، وأصبح لكل كتاب آلاف النسخ ولكل فرد الفرصة للتعليم والاعتماد على عقله فى تكوين رأى مستقل عن كل سيطرة خارجية. وبفضل الطباعة خلقت حركة النهضة فى أوروبا وانبعثت الحضارة وتقدم العلم تقدماً ملحوظاً إبان القرن السادس عشر والسابع عشر بفضل علماء مثل: "كوبرنيقوس" Copernicus (1473-1543) و"جاليليو" و"كبلر" Kepler (1571 - 1630).

المرحلة التاسعة: منذ ديكارت حتى قيام النظام الجمهورى فى فرنسا

هذه المرحلة هى مرحلة العقل الذى يفتح للإنسان آفاق المعرفة والعلم، ويغزو بنوره عالم السماء والأرض. وقد كان " ديكارت " الفضل الأكبر فى بناء صرح الاتجاه العقلى الحديث، ومن بعده " لوك " الذى حدد أسس التفكير الإنسانى وطبيعة الحقائق التى يمكن للإنسان معرفتها. لقد مدح

"كوندرسيه" نظرية " لوك" فى المعرفة التى تتلخص فى تحليل الأفكار الإنسانية إلى أصولها البسيطة، ثم تحدث أيضاً عن " ليبنتز " الذى آمن بنظرية الذرات ولا نهائية العوالم المنبثقة من مادة واحدة، فالعالم يتكون من عدد هائل من الوحدات البسيطة التى سماها " المونادات " (51)، وهذه المونادات هى الذرات الحقيقية للكون.

ولقد ساعد انتشار الفلسفة وتقدمها على الإيمان بالعقل وحده والقضاء على الخرافات والأفكار الشعبية المتوارثة، وتكونت فى أوروبا جمعيات وظيفتها محاربة هذه الخرافات فى الكنائس والمدارس والحكومات، ومن أهم مؤسسى تلك الجمعيات فى فرنسا: " فونتنل" و" ڤولتير " و"مونتسكيو". نادى هؤلاء المفكرين بمبادئ الثورة الفرنسية التى عملت على جعل السيادة للشعب بسنه القوانين التى تحدد الحقوق والحريات، وهكذا وصلت الإنسانية إلى حقوقها الطبيعية بعد أن عانت الكثير فى عصور طويلة من العبودية والاستبداد(52).

المرحلة العاشرة: تقدم العقل الإنسانى فى العقل (ما بعد القرن الثامن عشر)

يبدأ "كوندرسيه " حديثه فى هذه المرحلة، بمحاولة إثبات إمكان التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل(53) بالنسبة للعقل الإنسانى والجنس البشرى، فيقول: " إن التنبؤ بالظواهر الطبيعية فى المستقبل يكون مؤكداً - تقريباً - إذا عرفنا القوانين التى تخضع لها تلك الظواهر، وتكون نسبة احتمال صحة التنبؤ كبيرة إذا كنا نجهل تلك القوانين ولكن لدينا خبرة عن ماضى تلك الظواهر. وما دام الأمر كذلك بالنسبة لظواهر الطبيعة، فما الذى يمنع إمكان التنبؤ بالظواهر الإنسانية المستقبلة؟ " إن الأساس الذى يقوم

عليه التنبؤ بالظواهر الطبيعية يمكن أن يوجد ويطبق بالنسبة للظواهر الإنسانية - ويتلخص الأساس فى أن ظواهر الطبيعة خاضعة لقوانين عرَّف الإنسان بعضها، ولم يعرف البعض الآخر، وأن تلك القوانين ثابتة وضرورية. وذلك الأساس نفسه موجود بالنسبة للقدرات العقلية والأخلاقية للإنسان، فهناك قوانين دقيقة تخضع لها تلك الظواهر الإنسانية، ولتلك القوانين من الدقة والتحليل الكلى ما يوازى دقة قوانين الطبيعة (54).

وتتلخص أمنيات " كوندرسيه " التى ستتحقق فى المستقبل فى ثلاثة موضوعات هى:

1- قيام المساواة بين الأمم والشعوب.

2- تقدم المساواة بين أفراد الشعب الواحد .

3- الكمال الحقيقى والواقعى للإنسان .

* * *